افظع جرائم القرن التاسع عشر

٤ — سر المقصلة

حول الساعة السابعة من مساء يوم ٥ يونيه سنة ١٨٦٤ دخل خادم المستيو بوكيه مدير سجن « لاروكيت » يخبره أن زائراً يريد التحدث اليه ، ولم يكن الزائر سوى « الفريد لويس فلبو » أشهر الجراحين الفرنسيين فى عصره ، وقد تقدم الى مدير السجن يحمل أمراً من وزير الداخلية يقضى بالسماح له بزيارة زميله الدكتور ادموند دلا بومراى الذى كان ينتظر فى السجن تنفيذ حكم صادر عليه بالاعدام ، فسار الاثنان — مدير السجن والزائر — نحو غرفة المحكوم عليه بين قعقعة أسلحة الحرس وقرقعة أحذيتهم ؛ وماهى الا أن فتح باب الغرفة باشارة من المدير الذى لم يلبث بعدها ان انصرف متبوعا بحرسه تاركين الزائر ومضيفه وحدهما

وقد يكون من الصعب العثور على اجتماع للضدين مثل هذا الاجتماع الذي نحن بصدد منه . فقد كان لويس فلبو أشهر جراح فى العالم دأب على السعي فى تخفيف آلامه ؛ أبوه يطار نكرة فى إحدى قرى الريف ؛ وهو (الجراح) الآن فى الستين من عمره ، وكان وجهه المجعد الذى يفيض حنانا . وشعره الأشهب . وثيابه العادية غير المتكلفة لا تفرق بينه وبين أى رجل من رجال الاعمال . فلم يكن أحد ليحس بوجوده إلا حين يتكلم ؛ وحينئذ يعرف سامعه أنه فى حضرة نابغة ؛ وأظهر ما كانت تتجلى مواهبه حين كانت عيناه الغائرتان تشعان بضوء البحث والتنقيب ، فكان يخيل للناظر اليه فى تلك الاوقات كأنه ينتزع بعينيه آلام البشر من بين حنايا ضلوعهم

أما جميع عارفى الدكتور دى لابومراى فمتفقون على أن ملامح وجهه لم تكن لتنبئ عن شئ من ذلك ، وبالرغم من أنه كان شابا وسيم الطلعة للغاية فقد كان الرجال يتباعدون عن عشرته ؛ ولكنه من الجانب الآخر كان محبوبا إلى مدى بعيد عند طائفة كبيرة من الجنس اللطيف . وزملاؤه الاطباء ما كانوا ينكرون عليه مقدرته الفنية من الوجهة الفنية ، ولكنهم كانوا مقتنعين بأن تلك المقدرة لم تكن بقدر ادعاءات صاحبها ومزاعمه ؛ وأن المكانة التى بلغها لم تأته عن طريق منزلته العلمية بقدر ما جاءته من البيئة

الاجتماعية التي يعيش في كنفها ؛ والحق أن هذه البيئة هي التي هيأت له أسباب النجاح في عقد زواج موفق حيث اقترن بالآنسة دو بيزي ، إذ هي فتاة فتانة ؛ من أرقى الطبقات وأرفهها ابنة طبيب ثري ، مات عن زوجه وابنتهما ، وقد تم الزواج بغير رضاء الارملة التي كانت لا تطمئن مطلقا إلى صهرها قبل زواجه من ابنتها ، وقد أيد هذا الزواج شكوكها فيه ، على أن « النوطة » ومقدارها ٦٠٠٠ جنيه (وهي كثيرة مطمعة حتى في هذه الايام) كانت مقيدة بحيث لا يستطيع الزوج مسها بأي حال ، وعلى ذلك لم يتقدم دلابومراي أية خطوة الى الامام من الناحية المالية ، وظل مضطرا لموالاة مضاربات المالية في البورصة ؛ غارقا في لجة من الأسهم والسندات لا يعرف مداها الى ان ابتلعت ثروته وقضت على سمعته ، ولم يمض شهران على الزواج - وكانت الأرملة « الجاة » حياته الى ذلك الوقت في صحة جيدة - حتى اصيبت بقيء عقب تناولها الغداء في بيت صهرها ؛ ولم يستطع الطبيبان اللذان دعيا في ساعتها تشخيص العوارض التي اصابتها ؛ ثم بشر صهرها علاجها فقدت الحياة في صبيحة اليوم التالي وقرر دي لابومراي أنها أصيبت بالكوليرا ، وعقب وفاتها وضع دي لابومراي يده على جميع ممتلكاتها الشخصية التي كانت تقدر بنحو ألفي جنيه ورفض أن يدلي بأي بيان عما آلت اليه تلك الممتلكات على اعتبار أنها ميراث خالص لزوجته التي هي الأبنة والوارثة الوحيدة للمتوفاة التي لم توجد لها وصية

ومن الغريب حقاً - رغم الاشاعات التي تداولتها الألسنة عن موت تلك السيدة ورغم سواد صحيفة دي لابومراي الموجودة لدى البوليس - أنه لم يقبض عليه ولا وجهت اليه أية تهمة من أي نوع في هذه الحادثة حيث كانت السلطات تتجنب مسئولية القاء القبض على طبيب على جانب من الشهرة الفنية لاسيما وهو من افراد المجتمع الراقي ويجب ان لا يفوت القارىء ان لفظة « المجتمع الراقي » كانت وما تزال عبارة مطاطة ليس من السهل تحديد مراميها حتى ولو كانت تؤدي الى عكس معناها الظاهر بل والصحيح

***

انقضت سنتان على دي لابومراي وهو يحاول تحسين مركزه الفني والاجتماعي ؛ ليس من طريق جهوده الشخصية الفنية ، وأنما من طريق المظاهر ومعيشة البذخ واقامة

الحفلات الضخمة وغير ذلك. ومن الطبيعي ان موارده ما كانت تسمح له باحتمال تلك المظاهر لا سيما وأن عقد زواجه صريح فى أن دوطة زوجه لا يمكن مسها بأى حال ، حتى ولا باذن وأمر منها ، أذ هى نفسها كانت محرومة من التصرف فيما عدا ريعها وهو الفائدة السنوية من البنك التى هى مودعة فيه باشراف مسجل العقود . كذلك لم يكن موت زوجه ليفيده شيئاً . . على أنه لو فرض وكان موتها يعود عليه بفائدة فمن العدل أن نذكر أن حياتها كانت ثمينة لديه إلى حد كاف ليقفه عن السعى للاستفادة من طريق القضاء عليها ؛ لان هذا الطبيب القاسى القلب الذي لم يكن ينظر فى حياته الى النساء الا مثلما ينظر لقنطرة يعبر عليها لغايته كان يحب زوجته، وبلغ به حبها إلى حد أنه قطع علاقته مع المرأة التى كان يقيم معها إلى ما قبل ليلة عرسه وذلك رغم التوسلات الحارة التى كانت تلك المرأة لا تفتأ توجهها اليه ليل نهار بمختلف الاساليب والوسائط. فرفض حتى أن يعود اليها فى مرضه حتي يتفادى الرثاء لها اذا ما رآها فى حالتها المضنية بعد هجره لها بغير ما سبب الا زواجه ! !

ولكن بومراى بعد سنتين من زواجه — بالرغم من أنه كان سعيدا فى حياته المنزلية — شعر بضائقة مالية شديدة . . . بل انك لو بحثت عن الحقيقة لاعياك معرفة المصادر التى جاء منها ذلك الرجل بالاموال التى أنفقها فى تانك السنتين : ولعلك تحس أنه كان يبحث خلالها عن ضحية أخرى فضلا على حماته . . على أنى سأروى لك حادثتين اعرض عليك اقتراحا سوف تتبين أنه لم يقم عليه دليل لا فى محاكمته ولا فيما عرف بالتحقيق من تاريخ حياته . وانما أكاد أؤمن بصدق حدسى فى هذه المسألة حتى لأؤكد لك وجوب وقوعها

ذلك انى كنت أقيم فى باريس بين سنتى ١٨٥٩ و ١٨٦٤ حيث كنت اتخصص فى دراسة آداب اللغة الفرنساوية ؛ وأذكر انى قرأت خلال تلك المدة ترجمة فرنسية لكتاب وضعه انجليزى عن مشاهير المجرمين ومحاكماتهم ؛ والآن قد نسيت مطلقا اسم ذلك الكتاب واسم مؤلفه ؛ وما ذلك الا لانى كنت حديث السن وقت قراءته ولم أكن احسبنى سأحن لقراءته ثانية. فلم أشعر بخسارته الا حينما افتقدته بعد عدة سنين فما

وجدته ! بيد أنى اذكر منه قصة ذلك المحامى بالمر الذى اتهم هو وطبيب بقتل مدام ريجولى بتشيقها غازا خانقا، وكان بالمر هذا قد تزوج من مدام ريجولى مع وجود زوجته وثبت رسميا أنها أوصت بثروتها له بعد مماتها ؛ ولكن لم تقم أدلة مادية ضده لحكم ببراءته من تهمة قتلها وقضى عليه بالحبس اثنى عشر شهراً لارتكابه جريمة تعدد الزوجات . وبعد خروجه من السجن نجح فى كسب القضية التى قامت حول ثروتها واستولى عليها بمقتضى الوصية الشرعية (١) ... ولست اذكر من تفاصيل تلك القضية ألا هذا وألا أنى أحس بل أؤكد ان الكتاب الذى قرأت فيه تفاصيل تلك القضية لابد أن يكون قد وقع فى يد دى لا بومراى فأوحى اليه طريقة ارتكاب جريمته التى سأتى لك على ذكرها فيما يلى، وهذا طبعاً مع وجود فوارق بين هذه الجريمة الاصلية وبين الجريمة التي ارتكبها هو

إذن فلأروِ الحوادث دون تعليق ولا شرح تاركا للقارىء استنباط مايعن له:

فى سنة ١٨٦١ قطع بومراى كل علاقة له مع مدام بوا التى أقام معها حوالى الثلاث سنوات قبل زواجه . وفى شهر يونيه عام ١٨٦٣ ذهب الى زيارتها دون أن يدعى الى هذه الزيارة ؛ وقد زعم لها أن الدافع له على تغيير خطته معها أنه مشفق على أولادها ويرى أن أقل ما يجب عليه نحوهم هو أن يعنى عناية جدية بأمر مستقبلهم وأنه لا يتأخر عن بذل أية مساعدة لهم فى ذلك ، ويتجاذب العاشقان القديمان الحديث فى تلك المسألة الهامة فيقترح الطبيب فكرة عرضية هى أن تؤمن مدام بوا على حياتها، ثم يقف عند حد هذا الاقتراح ويتركها ويمضى . واستأنفا العلاقات وعادا الى بث اللوعة والوجد وارتفع العذار وعادت المياه الى مجاريها بينهما . وافاض عليها بومراى بشرح خطته التى تتلخص فى أنه سيقوم بالنيابة عنها بالتأمين على حياتها فى عدة شركات للتأمين على الحياة على مبلغ ٢٠ ألف جنيه . وهو بالطبع الذى سيقوم بدفع قيمة التأمين السنوية وتكتب قسائم التأمين باسمه . فلما سألته وكيف يستفيد أولادها بهذه الطريقة أجابها بأنه عند مايتم

---

(١) ما اشبه هذه القضية بقضية السيدة منيره فهمى زوجة المرحوم على بك كامل فهمى وقد قتلته فى لندن فحكم ببراءتها وجاءت الى مصر تطالب بميراثها الشرعى فى زوجها — المعرب

استخراج قسائم التأمين تتظاهر هي بمرض شديد يدخل الرعب في رؤساء هاته الشركات أنها قد لا تبرأ منه ، فيذهب ومراى اليهم ويثير الرعب في قلوبهم بأن لا أمل في شفاء المؤمن على حياتها بذلك المبلغ الطائل وأنها لن تلبث حتى تموت فيستحق دفعه الى الموصى له به — وهو بومراى نفسه . فيغريهم لالغاء عقد التأمين القديم وكتابة عقد جديد تقبل الشركة أن تدفع بمقتضاه مبلغا يتراوح بين ٢٠٠ جنيه و ٣٠٠ جنيه سنويا الى مدام بوا طوال حياتها . ولا ريب أن الشركة تقبل هذا التغيير عن طيب خاطر إذ ترى مدام بوا على حافة الخطر ، وحينئذ تنجو هي من الخطر بفضل علم عشيقها الطبيب الراسخ في فنه ، وتحصل — بفضل تدبيره المحكم — على مبلغ من المال سنويا يقيها وأولادها شر الحاجة ويساعدها على اخراجهم اخراجا حسنا . وما كاد الطبيب يفرغ من شرحه وبيانه حتى أعلنت مدام بوا موافقتها التامة على تنفيذ تلك الخطة دون أن تتريث بالتفكير في الجريمة التي هي مقبلة على ارتكابها : جريمة الغش والتزوير التي إن أكتشفت ، فضلا عن أنها تسلبها حقها في التأمين ، فقد تحاكم ويحكم عليها بالسجن من أجلها . ولكنها كانت مدفوعة في الموافقة عليها دون بحث أو تفكير بعاملين قويين . الأول أنها كانت تنظر الى عشيقها كأنه الولي على أولادها أو الوصي عليهم . والثاني نشوة استئناف العلاقات الغرامية مع عشيقها القديم : ولم يداخل المسكينة أي شك مطلقا في حقيقة نوايا ذلك الرجل ؛ مع أن قليلا من التفكير في التعهد الذي اخذه على نفسه بدفع رسوم التأمين — وقد كانت ضائقته المالية أظهر من أن تذكر — يجعل من الواجب عليها أن تتساءل على الأقل عن الطريق التي سيجني منها بذلك الرسوم الباهظة !! ولكن الحب أسوأ من فقد البصر ، لأنه أعمى ولا يدرك أنه أعمى . بينما تجد الضرير دائما على حذر ، يستعيض عن فقد بصره بحاسية غريزية فائقة قلما تدفعه الى ركوب متن الشطط ، اذ يرى ببصيرته ما هو محروم من رؤيته ببصره المفقود

على أن بومراى لم يفته الحذر في تنفيذ خطته المرسومة : فلم يظهر أمام رؤساء شركات التأمين حتى لا يثير في أذهانهم أقل ذرة من الاعتقاد فيه بأن اهتمامه لتلك المسألة لابد أن يكون ذا مرمى أو فائدة تعود عليه ؛ ولذلك جعل معاملاته معها بواسطة أحد وكلائها المدعو ديزميد . وقد تبين فيما بعد أن ماضي ذلك الوكيل لم

يكن خاليا من اللطخ السوداء . وقد تمت الصفقة باستخراج ثمانى بوالص تأمين على حياة مدام بوا لدى ثمانى شركات مختلفة، بلغت قيمتها جميعا ٥٥٠ الفا من الفرنكات :

و بالطبع فسبق صدور هذه البوالص كشف اطباء تلك الشركات على مدام بوا كشفا طبيا دقيقا لم يدع مجالا للشك فى سلامة بنيتها وعدم اصابتها بمرض من الأمراض القتالة كما هى العادة لدى شركات التأمين على الحياة ؛ ومع أن رسوم تلك البوالص الثمانية مع القسط الأول من سنوية التأمين، وقد بلغت ١٩٠٠٠ فرنك، اعطيت عنها الوصولات بأسم مدام دي بوا ، فأنه لم يكن سراً خافيا أن مصدر هذه النقود هو الكونت دى لا بومراى (وقد كان كوتماً بقدر ما أنا باشا !) كما فهم الذين عرفوا ذلك ان المقصود به أنما هو النظر لمستقبل اولادها وابناء، هو... غير الشرعيين !

وقد تم كل ذلك فى اواخر شهر يونيو من ذلك العام

وفى النصف الثانى من شهر سبتمبر التالى بدأت مدام دى بوا تذيع بين معارفها وجيرانها أنها تشكو من آلام رضوض اصابتها على اثر سقوطها على درج منزلها وهى صاعدة أذ زلت قدمها فقد حرجت على السلم ، واتبعت رواج تلك الأشاعة بالذهاب الى عدد من الاطباء عرضت عليهم نفسها وحصلت منهم على وصفات شتى لعلاجات متباينة، ولا شك قد أدرك القارىء اللبيب أن ترويج اشاعة السقوط من الدرج واستشارة الاطباء بشأنها كان نتيجة لخطة من رسم مخترع فكرة التأمين : بومراى ... غير ان ذلك المدبر الحكيم قد ارتكب بعد ذلك غلطة شنيعة ما كان احراه بالحذر من الوقوع فيها .. تلك أنه لم « يصرف » الوصفات التي حصلت عليها مدام دى بوا من الصيدلية ، وهذا فضلا عن أن مدام دى بوا ظلت تؤدى اعمالها المنزلية جريا على عادتها قبل ادعائها المرض حتى أذا استهل شهر نوفمبر واتصرمت بضعة أيام من بدايته أشار عليها بومراى بأن تلازم سريرها . حتى تمادى فى تضليل أطباء شركات التأمين الذين انتدبوا لعيادتها ، بدأن عشيقها لم يقنع بهذا وحملها على ان تتناول جرعة وصفها لها بأنها تظهر على مخاطيها بعض اعراض الحمى ، ومن سوء الحظ أن مدام دى بوا — رغم تحذيرات بومراى الصريحة البائنة — كانت تسر أدوار سير هذه المؤامرة أولا بأول الى صديقتها تدعى مدموازيل هلند متفائلة أمامها بأنه لن يمضى عليها وقت طويل حتى تكون قد ضمنت لنفسها

ولأولادها دخلا سنويا لا يقل عن ثلاثة آلاف فرنك . وفي الثالث عشر من نوفمبر حضرت الى زيارتها صديقة لها تدعى مدام ريفربناء على دعوة من صاحبتها ، وجرى بهما الحديث الى الكلام عن المستقبل وآماله وآلامه، فقصت عليها مدام دى بوا فى بساطة تامة ما ينتظرها من مستقبل سعيد بفضل سعة حيلة عشيقها وبعد نظره وعالى حكمته

وحتى ذلك الوقت لم تبد أية بادرة يستدل منها على قرب زيارة اطباء شركات التأمين لها

ثم اشتد عليها المرض حقيقة برغم محاولتها اخفاء وطأته على ابنائها وبناتها

وزارها فى هذا الوقت بومراى وفحصها فحصا طبيا فقرر أنها مصابة بالكولورين (مبادىء الكوليرا) ولكن لن يمضى عليها يوم أو يومان حتى تشفى منه

ولكن لم يمض يوم أو يومان حتى كانت جثة هامدة ، وفى مساء السادس عشر من نوفمبر لفظت مدام دى بوا آخر نفس فى حياتها بحضور صديقتها مدموازيل هلند ؛ وبينما كانت هذه نازلة الدرج لتبلغ الخبر الى بواب المنزل قابلت بومراى صاعدا ، فأبأته بالخبر المفجع، فلم يبد عليه أى تأثر ولا دهشة ، ولم يزد على أن قال لها « هذا ما كنت انتظره » . . . ثم صعد ووقف بجانب سرير المائتة ، وبعد أن فحصها قال « هذا كله نتيجة السقطة التى سقطتها من على الدرج » فلم تستطع مدموازيل هلند صبرا على كل ذلك الروغ. وصارحته بأنه أنما يكذب ؛ وأن صديقتها لم تسقط مطلقا من على درج ، وانها قد أطلعتها بل كانت تطلعها أولا بأول على ما كان يدور بينهما حول تلك الدسيسة المزعومة للحصول على مرتب سنوى لصديقتها المائتة

ومما لا شك فيه أن افضاء مدموازيل هلند الى بومراي بذلك الحديث كان جديرا بأن يعتبر انذارا له يقفه عن التمادي فى الاندفاع وراء مايثير الشبهات ضده، كأن يذهب صبيحة اليوم التالى لموت مدام بوا — وحرارة دمائها لم تكد تبرد بعد — الى شركات التأمين مطالبا بتسوية مبالغ الضمانات المأخوذة عليها !!

وبالرغم من هذا الطيش فى التعجل بمطالبة شركات التأمين. وما سبقه من أنذار مدموازيل هلند له الذى لم يلبث أن شاع وذاع وبلغ جميع الاسماع - حتى تقدم أخوها المسيو جوشون دى بوا يبلاغ الى السلطات للتحقيق فى موت شقيقته — بالرغم من هذا كله

لم تحرك تلك السلطات للعمل . ودفنت مدام دى بوا ، وانقضت بضعة أسابيع ، وأصبحت شركات التأمين على وشك دفع المبالغ المؤمن بها على حياتها ، وجعل پومراي يهنىء نفسه بنجاح لعبته ، وبات يعتقد ان الأرض ستطوى آثار جريمته الثانية كما طوت جريمته الأولى

ولكن المسيو جوشون مازال يطرق كل باب مناديا بأن أخته قد قضى على حياتها غدرا ، وأخيرا رضى البوليس أن يتحرك .. . وصرح باستخراج الجثة وتشريحها بواسطة الاستاذ تارديو ، وقد تم ذلك واخرجت الجثة وشرحت فى منتصف الليل ، ولكن أستاذ التشريح الذي لا يبارى قرر أن الامعاء سليمة وأن ليس فيها أثر مطلقا للسم !

وكان قد عهد بالتحقيق الى المسيو جونيه الذى جاء ذكره فى احدى الجرائم السابقة. فدرس المسألة من جميع أطرافها ، وأحاط بتفاصيل المؤامرة المزعومة ضد شركات التأمين كما رويتها مدموازيل هلمند نقلا عن لسان القتيلة ، فماذا يفعل رجل البوليس ؟ لاشك ان الموقف كان حرجا للغاية اذ لو أقدم البوليس على القاء القبض على كل شخص تحوم حوله الشبهات لما وسعت السجون المشبوهين ولعرقل التحقيق معهم — حتى تظهر براءتهم — سير الابحاث وراء الجناة الحقيقيين . ويكون الأمر أدهى وأمر اذا كان المقبوض عليه لمجرد الاشتباه طبيبا !! اذ تقوم نقابة الاطباء على بكرة أبيها بالاحتجاج على تصرفات البوليس المخجلة !! منادية بالويل والثبور وعظائم الأمور للاعتداء على عضو منها . . . فماذا يفعل رجل البوليس ؟؟

لبث جونيه يفكر ويفكر علّه يهتدى الى طريقة توصله الى كشف غوامض هذه الحادثة دون أن يرتطم بصخور المقتضيات الاجتماعية . الى أن جاءت عليه الصيحة المبكرة فى أحد الايام فى أواخر شهر ديسمبر التالى واذا هو فى منزل دى لاپومراى واقف تجاهه والطبيب لم يكد يفارق فراشه ولكنه يستقبل ضيفه — أو زائره كما تحب — فى أحسن بشاشة وأظرف ترحاب ، ولم تظهر على پومراى أية اشارة مهما تكن ضئيلة تثير فيه شكا أو ريبة . ولبثا يتحادثان زهاء الساعة فاظهر الطبيب حسن استعداده لمساعدة رجال البوليس فى الكشف عن غوامض موت مدام دى بوا ، لو أن هناك شيئاً غامضا

حقا ، وسرد على رجل البوليس قصة علاقته بمدام دى بوا من أولها ، ولم يقف عند حد الاقوال بل تقدم لاثبات صدق قوله بالأدلة المادية وهى خطابات عشيقته المنكودة ففتح درج طاولة وأخرج منه رزمة خطابات ملفوفة بعناية فى شريطة من حرير ، وقال لمناظره : « هذه هى خطاباتها فاقرأها واحكم بنفسك »

فلم يكد نظر المسيو جونيه يقع على رزمة الخطابات حتى أبرقت أسرته حيث خطر له خاطر فجائى عجيب . ذلك أن هذه الرزمة لا بد قد أعدت من قبل كما يعد المجرم دفاعه وهو متوقع بين آونة وأخرى زيارة البوليس له ، وكان هذا الخاطر الفجائى بمثابة قضاء حاسم على كل شك ساور المسيو جونيه فى ارتكاب بومراي للجريمة ، بيد أنه لم يشأ أن ينبه المجرم ويظهره على نتيجة استقرائه . وعاود الحديث معه فقال « أؤكد لك ياعزيزى الدكتور أننى لم أشك لحظة قبل قدومى اليك فى براءتك وبعدك عن ارتكاب ماقد يكون ثمة من جريمة ، ولكن مازالت هناك بعض اجراءات شكلية لاستيفاء التحريات والتحقيقات الملقاة على عاتقنا نحن رجال البوليس ، ولا مندوحة عن تدوين مادار بيننا من حديث فى محضر رسمى ، ومن رأيى أن يتكرم سيدى الدكتور بمرافقتى الى سراى العدلية بدلا من البقاء هنا حيث قد يقطع علينا الحديث فى أى وقت بدخول واحد من المرضى العديدين الذين تعالجهم ، فهل تستطيع ياسيدى ان تمنحنى نصف ساعة من وقتك ؟ »

أجاب دى لابومراى فى ذات غته المستطرفة : « بالطبع ألبى طلبك بكل سرور » ولم ينقض الحوار الذى دار بين المحقق ودى لابومراى فى دار العدلية — وقد دام عشر ساعات — حتى أصدر المحقق أمره باعتقال الطبيب فى سجن مازاس متهماً اياه بقتل مدام دى بوا عمدا مع سبق الاصرار

وليس يهمنا كثيراً ان تابع محاكمة الطبيب خطوة خطوة ، على أنه بالرغم من الدفاع المتين الذى تقدم به الاستاذ لاشو من أشهر محامى ذلك الوقت : وبالرغم من تقارير الخبراء المعينين من قبل الدفاع : فقد كانت الشهادات والأدلة التى قامت ضد بومراى من القوة بحيث أن المحلفين أصدروا قراراً بالاجماع بادانته .فحكم عليه بالاعدام فى ١٧ مايو سنة ١٨٦٤

هذا هو الرجل الذى انتصب واقفا من مقعده عند مادخـــل عليه الفريد فلبو فى غرفة سجنه ، ثم جعل يحدج زائره الأشهر بناظريه بضعة ثوان أشار إليه بعدها بالجلوس على المقعد الذي أخلاه ، واعتمد هو إلى سريره فى صمت غائر منتظراً أن يبدأه الزائر بالحديث

قال الزائر : « سيدى ليس بين الأطباء وبعضهم كبير حاجة إلى المجاملة فى كلامهم عن الموت ، وهم أبداً معرضون لتلك الخاتمة بسبب مهنتهم مهما تنوعت سبل هلاكهم وأنا نفسى انتمى لطائفة المحكوم عليهم » .

فقاطعه دى لابومراى : « اذن أنت تعنى ياسيدى انه لم يبق لي أمل مطلقا فى النجاة ؟ »

— هذا صحيح ولكن مايزال باقيا لك بضعة أيام على كل حال ، وعلى ذلك فأن الاقتراح الذى سأعرضه عليـــك أنما هو اقتراح شرطى ، فاذا مانجوت بحياتك كان ذلك حسنا وإلا . . .

فتقلصت ملامح وجه بومراى وافتر عن ابتسامة اليأس متمتما « وإلا ماذا ؟ »

وبدلا من أن يجيبه فلبو على سؤاله مباشرة أخرج من جيب سترته كيساً صغيراً محتوياً على آلات جراحية وتناول منه مبضعا رفع به كم دى لابومراى إلى الوراء ووضع أصابعه على يده يجس نبضه ثم اندفع قائلا :

— أن نبضك ثابت ثباتا عجيبا نادر الحدوث فى مثـــل الموقف الذى أنت فيه الآن ، ولذلك فانى مكاشفك توا بالغرض من هذه الزيارة . أنت تعلم أن من أهم مسائل الطب الحديث البحث عما اذا كان العقل البشرى يستطيع أن يحتفظ بطرفة أو أثر من الذاكرة (الحافظة) بعد انفصال الرأس عن الجسد . . .

أجاب دي لابومراي : « أعرف هذا وقد أطلعت على جميع ماقيل وكتب فى هذا الموضوع ، بل أذكر أنى سمعت احدى محاضراتك عنه ، وأخشى أن لاأستطيع أن أوافقك على النتائج التى وصلت اليها فى ختام محاضرتك . اذ أنى أعتقد باستطاعة العقل البشري الاحتفاظ بأثر مامن الذاكرة الحافظة . وقبل انقضاء أسبوع سوف

أعلم صدق نظريتى من كذبها علما أكيداً ولكنى بكل أسف لن ألبث أن أعلم هذا حتى أكون قد نسيت

وحينئذ تكلم الجراح بطء محدقا فى مناظره قال : — صحيح أنك سوف تنسى كل شيء ، ولكنك حينئذ تكون قد خدمت الانسانية والعلم وأنرت الطريق أمامها أبد الدهر (ثم تحول الى هيئة غريبة واستمر قائلا) أما وقد تفاهمنا فأنى مخبرك أنى قدمت لزيارتك من أجل تلك المسألة ، وأنا مو فد من قبل جماعة من أشهر زملائى فى باريس ، وهاك التصريح لى ببحث المسألة ، موقع عليه من الامبراطور نفسه ، وهو يخول لى سلطة واسعة كما ترى ، حتى الى حد أنى أستطيع تأجيل تنفيذ حكم الاعدام فيك اذا بانت لى حاجة إلى ذلك

فنظر المحكوم عليه إلى محدثه مبهوتا وقال :

— لست أفهم تماما ماتريد ! ؟

— دعنى أشرح لك الأمر اذن يامسيو بومراى باسم العلم العزيز، علينا بالغة مابلغت مصيبة فرد من طلابه فى سبيل خدمته ... باسم العلم الذى يعد ضحاياه من حاولوا القبض على ناصيته بالمئات — باسم هذا العلم حضرت اليك لأسألك ان تعطى مثلا فى الشجاعة والذكاء أكثر مما استطاع أى فرد من بنى الانسان أن يعطيه فى زمن مضى ، فأذا ما رفض طلب العفو عنك فلأنت اعظم الناس كفاءة وأقدرهم على أظهار العلم على حقيقة ينشدها ولما يظفر بها بعد ، فلو أنك استطعت ان تجعلنا نفهم بأى وجه من الوجوه ، كأن تعطينا أشارة مابعد اعدامك توصل رأسك عن جسدك ، تفيد احتفاظك — أى عقلك — بشيء من الذاكرة ، أذن تكون قد خدمت العلم خدمة فائقة ، ويخلد اسمك فى بطون تاريخ عظماء الرجال ، و يمحو الفضل العلى الذى ينسب اليك ما يكون قد علق باسمك من ادران المجتمع ومساوئه

فبهت لون بومراى وهمس بجبنا :

— لقد قاربت أن أفهم !

وعاد محدثه يقول :

— لست بحاجة لأؤكد لك ان مهمتك سوف تنتهى عقب ذلك مباشرة ، وحينئذ

كن على ثقة من أن جثتك سوف تودع مقرها فى راحة أبدية دون أن تتعرض ف بمباضعنا، وكل ما هنالك أنى سوف أكون ناظرا فى وجهك عندما تسقط سكين المقصلة على رقبتك ، ثم اتناول رأسك بسرعة بين يدي بمجرد انفصالها عن جسدك . فأضع فمى على أذنك — ولأنه كلما كانت التجربة سهلة كان نجاحها أقرب - أقول لك يا مسيو كوتى دي لابومراي اذا كنت تذكر ما اتفقنا عليه فهل يمكنك فى هذه اللحظة ان تغمض جفن عينك اليمنى ثلاث مرات متتابعة بينما تبقى عينك اليسرى مفتوحة؟ فاذا استطعت فى تلك اللحظة — مهما يكن من ملامح وجهك الأخرى — أن تجعلنى أشاهد تلك الحركة الثلاثية التى شرحتها لك، وأن تتغلب ارادتك على ذلك الفزع الرهيب ، وتحتفظ بثباتك ضد أسباب الغيبوبة المجتمعة فى ذلك الظرف — أذا استطعت أن تفعل كل هذا فأنك تكون قد قدمت للعلم ضوءاً كافيا يسير على دربه مسترشدا بنوره لفهم كثير من الحقائق التى لا يزال يتلمسها . وثق ياسيدي أنى سأعمل على نشر اسمك وفضلك فى عداد الابطال ونحوه من قائمة المجرمين

وما انتهى فلبو من كلامه حتى سقط دى لابومراى قاعدا على سريره كالمصعوق أو كالمأخوذ .. وبعد برهة قال :

— أن الصدمة التى سوف القاها — رغم ماسأبذله من جهد بفضل ارادتى — ستعوقني عن تذكر كل هذا فى ساعة الموت . زد على هذا أن قوة الاحتفاظ بالذاكرة تختلف باختلاف الاشخاص والأمزجة، لاسيما فى موقف الأعدام. ومع ذلك فأرجوك ياسيدى أن تعود الى صبيحة يوم أعدامى لأخبرك بما يستقر عليه رأيي فى هذه المسألة

ولحظة أخرى وغادر فلبو غرفة السجين

***

ومضت اثنتان وسبعون ساعة بعد تلك المقابلة كان يتناقص الأمل خلالها فى تنفيذ التجربة التى اتفق الطبيبان على اجرائها . وبعد ظهر ٨ يونيه ذهب الاستاذ لاشو — محامى بومراى — الى التويلرى صحبة زوجة المحكوم عليه التعسة. وحصل لها على أذن بمقابلة الامبراطورة. وهذه لم تتردد فى الوعد بالتوسل الى الأمبراطور . وهذا بدوره لم يخيب الرجاء المعقود عليه، فوعد الزوجة البائسة بالابقاء على حياة زوجها فقفزت

المسكينة فى عربة . وخطت لزوجها بضع كلمات بقلم رصاص قالت فيها ، لقد وعد جلالة الامبراطور بتعديل الحكم الصادر ضدك ، وارسلتها اليه اذ لم تستطيع مقابلته

وبعد ثلاث ساعات انعقد مجلس الوزراء فى قصر التويلرى برئاسة نابليون الذى اقترح — برأ بوعده — تعديل حكم الاعدام . وحينئذ عارض جميع الوزراء تلك الفكرة مستندين فى معارضتهم على أن مهنة بومراي التى سدت السبيل فى وجه البوليس دونه فى حادثة مدام دوبيزى (حماته) اصبحت هى بذاتها (مهنته) السبب القوى فى القصاص منه . أضف الى هذا أن المحكوم عليه ينتمى لطائفة تتداول ارواح الناس فمن الضرورى أن يضرب لهم مثل يكون فيه عظة وعبرة لمن عسى أن يلعب الشيطان بلبه من أفرادها ؛ الخ . . الخ . . فرضخ الامبراطور لوزرائه ، وصدرت الأوامر بتنفيذ الحكم فى صباح اليوم التالى ، ولم يبلغ خبر هذه الأوامر إلى الامبراطورة ولا إلى مدام دى لا بومراى وانما لم يفت ذلك المحامى الفاضل أن يذهب فيبلغ الحقيقة الى المحكوم عليه خشية أن يتبادر إلى ذهنه فى أخريات لحظاته أن زوجته قد خدعته

***

أصبح صباح اليوم التاسع من شهر يونيو مشرقا بهيجا . وأوقظ المحكوم عليه فى الساعة الخامسة من ذلك الصباح

وكان بين الذين دخلوا قاعته الجراح فلبو ، وكان أول من خاطبه قسيس السجن الأب كرونز ، فلم يطل الحديث بينهما لأكثر من عشر دقائق . ثم التفت (بومراى) إلى الجراح الاشهر وقال له ، لقد تمرنت ، وآمل أن أقوى على تحقيق غايتك ، وبينما كان حكم الاعدام يتلى عليه كان يغمض عينه اليمنى ويفتحها محافظا على أن تبقى عينه اليسرى مفتوحة خلال التجربة

وبعد ربع ساعة فتح باب السجن على مصراعيه وسرعان ما طرح على المقصلة ثم لم تكد تمضى ثوان ثلاث حتى هوت سكينها على عنقه . فارتج المكان من هول الصدمة . وما كاد الحضور يستجمعون أذهانهم حتى رأوا رجلا يحمل الرأس المقطوع بين كفيه وقد حدق فيه تحديقا غريبا ، ثم لم يلبث أن قرب أذن الرأس إلى فمه كأنما

يسر اليها شيئاً فهلع النظارة وأذهلهم العجب الممتزج بالخوف ، على أن ذلك الرجل اعاد الرأس بعد هنيهة الى السلة المخصصة لها . ثم شمر أكمامه و غسل يديه من الدم الذي سال عليهما فى قرواة الماء التي يغسل فيها السياف ومساعدوه أيديهم ثم مضى

وقد دون فلبو ذلك الحادث الرهيب فقال : « ما كدت انطق الكلمات الأولى من الجملة المتفق عليها حتى أطبق جفنا العين اليمنى على بعضهما وظلت العين اليسرى مفتوحة تماما وعندئذ صحت : باسم بارتك أعطني الاشارة مرتين أخريين . وكان صوتى عاليا يسمع على بعد بضعة أمتار رغم أن فمى كان لاصقا بالاذن. وحينئذ ارتعش الجفنان واهتزت رموشهما اهتزازاً يكاد يكون غير محسوس، ولكن العين فتحت ثم أغمضت وكان الوجه قد بهت بهوتا شديدا أقرب إلى الزرقة منه إلى البياض ، و بعد خمس ثوان لم تكن ثمة أدنى حركة »

أحمد مختار

فهرست

ص		
١	حدود المعرفة وتقسيمها	اسماعيل مظهر
١٩	الاشتراكية ـ عن روبرت تشاردز	مصطفى حمدى القوني
٢٤	فيلكس لاداتك ـ البيولوجى	ابراهيم حماد
٣٢	لما قرأت نيتشة ـ عن أميل فاجيه	عبد الحميد سالم
٤٧	تحسين النسل	ع . ع
٥٠	الليل ـ من أغانى بلتيس ـ شعر	حسن كامل الصيرفى
٥٣	المدنية اليهودية المستقبلة	عمر عنايت
٥٦	سياسة حزب العمال الانجليزى	. . . .
٥٩	اعترافات متطفلة ـ قصة مترجمة عن التركية	. . . .
٧٠	الغيرية	أبو العينين
٧٢	فساد النظامات الاجتماعية	ا . ح
٧٦	ادمون روستان ـ محاضرة	للاستاذ الجداوى
٩٤	نماذج الشعراء ووحدة الحب ـ قصيدة	أبو شادى
٩٦	نظرة نقدية ـ حد الامكان	الحاجري
١٠٠	هل الضوء مادة	حسن أحمد السلمان
١٠٢	حقيقة الربا والفائدة	سليم على سليم
١٠٧	نظام البيع بالتقسيط	عمر عنايت
١٢٠	ماذا حدث ـ فى ولاية اركنساس ـ حول التطور	بندلى البيلونى

تابع فهرست العدد

ص		
١١٢	سخرية الحياة ـ قصيدة	أبو شادي
١٠٤	هنري برجسون ـ في نظر معاصريه	عبد الحميد سالم
١٢٦	موسيقى شوبرت	. . . .
١٣١	نهضة الترجمة والتعريب ـ بمناسبة صدور الطبعة الثانية من قاموس الدكتور محمد شرف	
١٤٥	أفظع جرائم القرن التاسع عشر ـ قصة كاملة	أحمد مختار